استدعاء التاريخ في روايات " صنع الله إبراهيم "

(بيروت بيروت ، التلصص ،العمامة والقبعة) أنموذجا

إعداد :طالب دكتوراه /خالد خينش
تحت إشراف : ا.د.بريهات عيسى
جامعة عمار ثليجي بالأغواط

Résumé:

L'écrivain égyptien Sonallah Ibrahim, militant de gauche incarcéré pendant cinq ans est un fin analyste politique, il raconte dans son célèbre roman "Turbans et chapeaux" la campagne d'Egypte de Bonaparte. Tous ses romans dans leur intertextualité avec l'histoire ouvrent les portes à des lectures et des interprétations, qui dépassent tous les réserves des écrits historiques et officielles, et montrent des points noirs et des vues d'angles autre fois invisibles et silencieux.

Lutteur acharné contre le régime épouse les causes des faibles et des citoyens marginalisés et des classes populaires égyptiennes fragilisées. Il consolide cette conscience historique par un mouvement artistique créative et révolutionnaire. Son style d'écriture met en abyme l'historique et consolide la poétique de l'art du roman arabe comme marque enregistrée en son nom.

En étudiant ses romans : (Beyrouth Beyrouth , le turban et le chapeau…) nous allons tenter de répondre aux questions suivantes:

- Quels sont les mécanismes utilisés par l'auteur pour vulgariser le quotidien et l'histoire dans ses romans?
- Quelles sont les limites du chevauchement entre l'histoire et l'imagination dans ses romans»?
- Pour quel but il dit «ce qui s'est passé» avec un style très littéraire et à travers une intertextualité historique distinguée ?ces vrai-faux récits historiques résonnent étonnamment avec l'époque contemporaine, et même face aux événements actuels du monde arabe.

الملخص:

تفتح روايات "صنع الله إبراهيم" في تناصها مع التاريخ أبوابا للقراءة والتأويل ، حيث تتجاوز تحفّظ الكتابات التاريخية الرسمية ، وتظهر المغيب والمسكوت عنه ، منتصرة للضعفاء والمهمشين ، ويصاحب هذا الوعي التاريخي وعي فني إبداعي ، يوظف التاريخ دون التقيد بالتقريرية والمباشرة ، بما يضمن للرواية فنيتها وشعريتها ، وهذه الخلفية المعرفية والفنية هي التي تجعل من روايات الكاتب علامة مسجلة باسمه.

فالتاريخ يتماهى مع التخييل في روايات صنع الله إبراهيم ، ليشكلا فنية الرواية وعمقها الحضاري ، ومن هنا تأتي هذه الدراسة لمعالجة استدعاء التاريخ في روايات الكاتب (بيروت بيروت ، التلصص ، والعمامة والقبعة) محاولة الإجابة على الأسئلة الآتية :

- ما هي الآليات التي استخدمها الكاتب في توظيف التاريخ في رواياته ؟
- ما هي حدود التداخل بين التاريخ والتخييل عند " صنع الله إبراهيم " ؟
- ما الهدف من توظيف التناص التاريخي في روايات " صنع الله إبراهيم" ؟

توطئة :

تعتبر الرواية في عالم اليوم وسيلة للتعبير عن القضايا والمواقف ، فهي تسعى إلى إيصال الأفكار، و بث الإيديولوجيات والفلسفات المعاصرة ، بما تحمله من الرؤى و التصورات والأحلام ، التي يسعى كاتبها إلى تبليغها لجمهوره ، و بذلك لم يعد دورها يقتصر على ما تقدمه من متعة فنية أو تسلية ذهنية[1].

ويعد التاريخ منهلا خصبا للروائيين ، فهم يستمدون من أحداثه وشخصياته مادة لكتاباتهم الروائية ، حيث لم تعد الأحداث و الشخصيات التاريخية تشكل تلك الظواهر العابرة ، التي تتلاشى مع الواقع ، و إنما تحمل في طياتها الدلالات الشمولية التي تترسخ ببقائها ، مع إمكانية تجددها و امتداد ها عبر التاريخ بأشكال مختلفة[2].

و " صنع الله إبراهيم "كغيره من الكتاب الذين اتخذوا التراث والتاريخ مادة لنصوصهم الروائية و لجأوا إلى إعادة قراءة التاريخ ، في محاولة منه لتشريح الواقع ومحاكمته ، فالتاريخ حسبه « أمدّ الرواية العربية ببعض أجمل إبداعاتها ، بمثل ما فعلت الأعمال التي نجحت في " تقطير " ليس فقط مرحلة معينة من التاريخ ، وإنما المسيرة الروحية الحافلة عبر العصور ، وعبر العديد من التراثات »[3].

1- الأحداث التاريخية آليات للبناء التشكيل :

في الروايات الثلاثة محل الدراسة استطاع الكاتب أن يتخذ من الأحداث التاريخية موضوعا لرواياته، حيث كانت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على مصر هي موضوع رواية " العمامة والقبعة " ، بينما كانت الحرب الأهلية اللبنانية وتداعياتها هي موضوع رواية "بيروت بيروت " ، وفي رواية" التلصص "كانت الأوضاع المصرية خلال حكم الملك فاروق موضوعا للرواية .

ومنذ البداية يصطدم القارئ لروايات " صنع الله إبراهيم " بصوت الراوي الذي فوضه الكاتب لينوب عنه في السرد، حيث يبدأ السرد في رواية " العمامة والقبعة " بقوله « اندفعت وسط الجموع الصاخبة »[4]، فاستعمال ضمير المتكلم يوهم بواقعية الأحداث ، كما يرى " ميشال بوتور " رغم « أن الإبداع لا يملك بالضرورة علاقة تماثل حتمية مع النموذج الواقعي»[5] ، وفي رواية " التلصص " يتكفل بالسرد راو يتمثل في شخصية صبي ، بضمير المتكلم « أقف خلف باب

---

[1] محمد حلمي القاعود : الرواية الإسلامية المعاصرة) دراسة تطبيقية ، دار العلم و الإيمان للنشر التوزيع ، دمشق ، سوريا ط1 ، 2000 ، ص.13.

[2] سعيد يقطين ، النص الروائي ، منشورات المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء ، المغرب، ط1 ، 1989، ص 81.

[3] صنع الله إبراهيم وآخرون ، ملتقى الروائيين العرب الأول (شهادات ودراسات) ، مهرجان قابس الدولي ، قابس ، تونس ، دار الحوار ، اللاذقية ، سورية ، ط1 ، 1993، ص 19.

[4] صنع الله إبراهيم ، رواية العمامة والقبعة ، دار المستقبل العربي ، مصر ، 2008، ص 05.

5 رولان بارث وآخرون ، مغامرة في مواجهة النص ، ت وائل بركات ، دار الينابيع ، دمشق ، سوريا ، ط1، 2008، ص 88.

البلكونة.حبة الحلبة المزروعة داخل قطنة في كوب»[1] ، وفي رواية "بيروت بيروت " نلاحظ أن الراوي المتمثل في شخصية المؤلف هو الذي يختبئ خلفه الكاتب، فمن البداية نجد صيغة المتكلم تتصدر الرواية « فتشوني مرتين ، الأولى عند الحاجز الجمركي »[2] ، إلا أن « الزج بضمير المتكلم في الرواية ، أو توسل السارد به يحقق بطبيعة الحال الوظيفة التواصلية مع القارئ ، ومع الأحداث»[3].

فالراوي الذي يتكلم بضمير " الأنا " يتحدث عن ذاته ، فهو واحد من شخوص الرواية يعرف ما تعرفه الشخصية لأنها هو ، ويرى ما تراه الشخصية نفسها ، فهو يتحدث من منظور ذاتي عن مشاعره ، وهذا ما يسمى بالرؤية الداخلية أو (الرؤية مع) ، فهو راو مشارك أو مصاحب .

وفي " العمامة والقبعة " يستعمل الراوي تلميذ الجبرتي الذي لم يحمل اسما معينا ، ضمير المتكلم ليكشف عن عالمه الداخلي ومعاناته في حب " بولين "كما يبينه هذا المقطع : « أمضيت الليلة عاجزا عن النوم ، استرجعت ما وقع بيني وبين بولين عدة مرات وأنا أتعجب لجفائها »[4].

كما أن ضمير المتكلم " أنا " يستخدم من خلال الذكرى ، حيث يسترجع " الراوي " في رواية " العمامة والقبعة " ذكرى طفولته في صعيد مصر :« ورويت لها كيف تعلمت القراءة والكتابة ، وحفظت القرآن في كتاب قريتي ، ثم مات أهلي في الطاعون ، فجئت من الصعيد ، وجاورت في الجامع الأزهر»[5]، ويكثف الراوي من استخدام ضمير المتكلم ، حين ينقل كلمات شخصيات أخرى تشترك معه في تطوير الأحداث التي يرويها ، مثل نقله لكلام الغلام " جعفر " عن الأوضاع في البلاد : « إني لن أضطر للذهاب بعيدا »[6]أو عند نقله لرسالة القائد العسكري " بونابرته " : « نخبركم عن سفري من بر الشام إلى مصر، فإني بغاية العجلة بحضوري لطرفكم. نسافر بعد ثلاثة أيام تمضى من تاريخه»[7].

فأصوات جعفر ونابليون جاءت بضمير المتكلم ، أي بأصواتها ، غير أنها تقدم مواقف درامية تروى من منظور الراوي لأن « السارد الأنا قادر على النفاذ إلى أدق الدقائق وأكثرها غموضا »[8]، إلا أنها تختلف عن صوته في بعض الأحيان فهو يختلف عن الجبرتي في نقل الأحداث وتدوينها ، حيث « يركز الشيخ في طياراته على الأحداث العامة ويتجنب الحديث عن الأمور الشخصية »[9]، كما أنه يدون بعض الأحداث التي يتأخر الشيخ في تدوينها كحادثة إعدام " الشيخ كريم " التي لم يسجلها "الجبرتي " في وقت حدوثها ، ولم يدونها في مذكراته إلا بعد وقوعها بتسعة أشهر "[10] ،كما أنه يختلف عن نابليون في نقل حقيقة الأحداث التي رآها بالشام .

كما يستعمل ضمير المتكلمين " نا " الذي ورد كثيرا في الرواية ، وهي صيغة تؤكد حضور الراوي ، ومشاركته في الفعل

---

[1] صنع الله إبراهيم ، رواية التلصص ، دار المستقبل العربي ، مصر، 2007. ، ص 35.
[2] صنع الله إبراهيم ، رواية بيروت بيروت ، دار المستقبل العربي ، مصر ، ط.2، 1988 ، ، ص 7.
[3] ينظر عبد الفتاح الحجمري ، السارد في رواية الوجوه البيضاء ، مج فصول ، المجلد الثاني عشر العدد الثاني ،القاهرة ، 1993، ص 147.
[4] العمامة والقبعة ، ص107.
[5] المصدر نفسه ، ص 88.
[6] المصدر نفسه ، ص 31.
[7] المصدر نفسه ، ص 169
[8] صلاح صالح ، سرد الآخر ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط1 ، 1996 ص 66.
[9] العمامة والقبعة ، ص 20
[10] المصدر نفسه ، ص 177.

ومن أمثلتها :

- « خرجنا إلى الحارة » [1].
- « شربنا يومها عصير فواكه »[2]
- « صادفنا موكبا من العساكر »[3]

إن المشاركة في الفعل (ضمير المتكلمين) ، تدل على حضور الراوي وشهادته ، إنها جمالية الإيهام بالواقع التي يمارسها السرد في رواية " العمامة والقبعة ".

2- يوميات السرد بين السيرة والتاريخ :

يضع " صنع الله إبراهيم " قارئ روايته " التلصص " داخل الإطار الزماني والمكاني الذي تجري فيه أحداث الرواية :

« القاهرة 1948 ، جيش الاحتلال الإنجليزي ينتقل إلى قناة السويس، الأحكام العرفية مطبقة [...]على هذه الخلفية تدور دراما صغيرة لصبي في التاسعة من عمره وأب في الخامسة والستين محورها السعي وراء دفء المرأة»[4].

يختفي الكاتب وراء " شخصية الراوي " المتمثلة في ذلك الطفل الصغير ، الذي أوكل له مهمة السارد الشاهد المطلع على كل شيء ، حيث من البداية يصطدم القارئ بالأنا الساردة التي تتولى التعريف بشخصيات الرواية وسرد أحداثها .

والملاحظ أن الكاتب اختار مرحلة تاريخية فاصلة ليست في تاريخ مصر فحسب ، بل في تاريخ الأمة العربية ، وهي سنة 1948 ، والتي تمثل سنه انهزام العرب أمام اليهود بفلسطين ، و إعلان قيام الدولة الإسرائيلية على الأرض الفلسطينية ، كما أنها تمثل مرحلة ما قبل الثورة المصرية التي أطاحت بالنظام الملكيَ.

فشخصية الراوي التي اختارها الكاتب هي من وسط الطبقة التي عادة لا يذكرها التاريخ ولهذا منحها فرصة كتابة التاريخ ذلك « أن الروائي وإن بدا مستسلما للخيال، ليَرسم لوحات أقرب إلى الحقيقة من تلك التخيلات المدعاة تاريخيا على سبيل التبجيل ، فالتاريخ لا يركز نظرته المتعجرفة على غير الملوك و مشروعاتهم الخاصة وعملياتهم السياسية الكبيرة التي تلفها الأسرار ، أما الرواية فهي أقل تكبرا ، ولذلك فهي تحتضن الجمهور و تَتبع مسيرة المزاج و الطبع » [5].

فالكاتب من خلال هذا التوظيف أراد أن يعيد كتابة التاريخ بشهادة من عاشه من الشعب، دون تأثر بالصورة النمطية التي يريد إعلام السلطة فرضها فصنع الله إبراهيم من الروائيين الذين تصدوا « لمسلسل التدهور والانتكاس ، في محاولة لاختراق العتمة المسدلة من حولهم ، حيث تسيطر الدولة على أجهزة الإعلام ، فتحجب الحقائق والمعلومات ،أو ترسلها مشوهة مزوقة ، أو تبث هي نفسها أنماطا من التفكير و السلوك معادية لمصالح الأغلبية »[6].

---

[1] المصدر نفسه ، ص 12.
[2] المصدر نفسه ، ص 24.
[3] المصدر نفسه ، ص39.
[4] التلصص ، ص 1.
[5] جيرار جنيت و مجموعة من الكتاب ، الفضاء الروائي ، ترجمة عبد الرحيم حزل ، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1 2002، ص113 .
[6] صنع الله إبراهيم ، العرب في مواجهة مصيرهم : أسئلة الإبداع في الأدب العربي في عالم متغير ، ضمن كتاب ملتقى الروائيين العرب الأول (شهادات ودراسات) ، مهرجان قابس الدولي ، قابس ، تونس ، دار الحوار ، اللاذقية ، سورية ، ط1 ، 1993، ص 20.

حين تنشر «صفحات من مجلة مصورة خضراء اللون مثبتة بالدبابيس، صورة الملك" فاروق"وهو صبي جميل بالبنطلون القصير والطربوش، صورة أخرى له في سيارة مفتوحة مع شقيقاته الثلاث الجميلات، صورة ثالثة له بجوار أبيه الملك" فؤاد"ذي الشارب المدبب الطرفين المرفوعين إلى أعلى»[1] ،أو تقوم بتجريم من يعارض الحكم : « إنت إيه بينك وبين" أخبار اليوم"؟ يضحك :مفيش ، أنا سميتها بالصحيفة الصفراء لأنها نشرة بريطانية طلعت مخصوص لمناصرة الملك ضد" الوفد ."تقول عليه الملك الصالح والعامل الأول والتقي الأول [2]».

تلك الصورة التي يواجهها الكاتب بالحقيقة التي يتداولها الناس على المقاهي « والملك بيلعب القمار كل ليلة فينادي السيارات، والمسئولين بيلعبوا" التيرو»[3]. وتورط العائلة المالكة في الفضائح : « يقول الدكتور" مندور :"الملكة" نازلي " هي اللي دبرت القتل .كانت بتغير منها ، أنصت في اهتمام فالحديث عن أم الملك.يستفسر أبي :وليه؟

- بسبب" أحمد حسنين "باشا.

- كانت عشيقته.

-مين؟ أسمهان ؟

"-أسمهان "الأول وبعدين" نازلي »[4] .

ولعل إعادة قراءة التاريخ التي ينتهجها " صنع الله إبراهيم " في رواياته هي التي تفسر تلك الريبة التي ينظر بها المثقف عموما إلى كتابة التاريخ وفق أهواء من كتبه ، أو مداراة للسلطة ، وهذا ما نجده في رواية " العمامة والقبعة " حين يتقمص السارد/الراوي دور المؤرخ « يركز الشيخ في طياراته على الأحداث العامة ويتجنب الحديث عن الأمور الشخصية، قررت ألا أقلده ورويت واقعتي مع الجارية ، دوّنت التاريخ الهجري ثم استبدلته بالتاريخ الميلادي»[5] ، فالكاتب "صنع الله إبراهيم " في روايته هذه يؤكد على أن الأشياء البسيطة التي يراها المؤرخون – أمثال الجبرتي – لا تستحق الكتابة ، هي التي تصنع التاريخ الحقيقي باعتبار أن الأحداث الشخصية أكثر صدقا في الكتابة ، فما كتبه المؤرخون الفرنسيون عن الحملة الفرنسية باعتبارها فتحا حضاريا، ينير ظلمات الجهل في المشرق ، تكذبه الاعترافات الشخصية لأحد قادتها (دينون) للراوي : «كنت أؤمن بأننا سنعيد الحضارة إلي هذا البلد .. لكننا لم نفعل شيئا حتى الآن سوى سفك الدماء وجمع الضرائب » [6] .

فالكاتب ينطلق من مبدأ أهمية الوعي بالتاريخ ، و تأثيره على الأجيال عبر الزمن ، ذلك « أن الوعي بالتاريخ تتجاوز فائدته الحاضر و بناء واقعنا المعاش ، إلى التأثير في المستقبل القريب .»[7].

ويوظف " صنع الله إبراهيم " في رواية " العمامة والقبعة " شخصية الكاتب الراوي ، الذي لم يضع له اسما ،لينقل القارئ إلى الفتنة الطائفية المتمثلة في الحرب الأهلية في لبنان ، حيث يظهر السارد/الكاتب كشاهد على الأحداث ، محاولا القبض على أسبابها من خلال زيارته إلى بيروت لطبع كتابه ، الذي رفضت دور النشر المصرية طباعته ، ذلك أن العاصمة بيروت « بخلاف العواصم العربية الأخرى ...كانت حسنة السمعة قبل الحرب الأهلية ،

---

[1] التلصص ، ص 15.
[2] المصدر نفسه ، ص 114.
[3] المصدر نفسه ، ص 103.
[4] المصدر نفسه ، ص 105.
[5] رواية العمامة والفبعة ، ص 20 .
[6] المصدر نفسه ، ص 193-194.
[7] محمد عمارة ، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ ،دار رشاد للطباعة ، مصر ، ط1، 1997، ص 33.

بوصفها أكثر أسواق النشر ـ ليبرالية ـ في العالم العربي»[1] ، وعبر بناء سردي لا يكتفي بأحداث منتمية إلى عالم التخييل فحسب ، بل يتجاوزها إلى وقائع تاريخية وسياسية واقعية يضع الكاتب من خلالها القارئ في ورطة ، تجعله يستنفر كل حواسه للإحاطة بالعلاقات التي تربط الواقع بالمتخيل، وإدراك تواشجاتها النصية ، ومدى علاقة الحاضر بالماضي « فالحاضر لا يمكنه السير منفصلا عن تلك الأيام الموغلة في رحم التاريخ ، لا بد من رؤية الحاضر بمنظور تاريخي، ليمارس التاريخ دوره بوصفه محفزا على التجدد والانبعاث ، والبحث عن المستقبل الأفضل لن يتحقق إلا بتقمص الماضي ، بوصفه تيارا يصب في الحاضر ويردفه بمكوناته »[2].

لقد اشتهرت الحرب اللبنانية عند المؤرخين بأنها طائفية ، لكن الكاتب الراوي الذي غاص في أعماقها يعلن أن « الاتفاق كان منذ البداية ، محملا ببذور الانفجار ، فمن ناحية لم يكن التوازن بين الطوائف وحدها ، فقد كان في الوقت نفسه توازنا إقليميا ، وتوازنا بين العائلات والعشائر و المؤسسات .»[3]، فالاتفاق الأول بين اللبنانيين حمل بذور الانفجار عندما اتفق اللبنانيون على تقسيم السلطة ، هذا القصور في الرؤيا لدى المتفقين هو ما أدى إلى اندلاع هذه الحرب ، والملاحظ لدى "صنع الله إبراهيم أن حضور التاريخ بأبعاده الواقعة و المتخيلة يتخذ « شكل السيرة الذاتية ، والذي عادة ما يمثله الراوي أو البطل ،الذي تعتبر حكايته النواة الأساسية للرواية »[4].

ففي الروايات الثلاث يبدو الراوي البطل وكأنه يوثق سيرة ذاتية ، حيث يغلب الأنا على كل أشكال السرد ، فالقارئ لا يعرف عن أحداث الروايات أو صفات الشخصيات الروائية إلا ما تريد هذه – الانا – أن يعرفه ، وما يجمع بين كل روايات " صنع الله إبراهيم " –محل الدراسة- هو أن شخصية الراوي بدون اسم ، وكان الكاتب يريد من القارئ أن يتقمص دور الراوي وهو يقرأ بضمير المتكلم ، ذلك الشعور الذي يوهمه بالواقعية وينقله إلى داخل عوالم السرد ، ليساهم في تشكيل صورة أخرى للتاريخ ، ويدفعه إلى البحث عن ما وراء تلك الإضاءات التي تشي بها القراءة، و تستفز فيه ملكة التساؤل عن مبتغى الكاتب من إعادة كتابة التاريخ روائيا .

3- محاكمة التاريخ روائيا :

إن الواقعية التي يكتب بها الكاتب رواياته ، واستمداد مادتها من التاريخ تربك القارئ ، وتجعله في حيرة بين حدود الواقعي والمتخيل ، حيث تبدو رواياته « بأنّها قصة خيالية ذات طابع تاريخي عميق »[5]، و لهذا يتجه التساؤل إلى كيف وظف " صنع الله إبراهيم " التاريخ في رواياته؟ فنحن نلمس أشكال التناص التاريخي التي استخدمها الكاتب كأداة فنية لتشكيل معمارية النص الروائي ، حيث لم يأبه لتلك الأحداث التاريخية كما دونها المؤرخون ، بل جاس خلال تلك الأحداث وتسلل إلى غياهب التفاصيل فيها ، فما هو تاريخي ومعروف لدى القارئ قابله السرد بما يثير الشك ويخلخل الثقة في الحقائق التاريخية ، « لأن الرواية هي كتابة ما لم يكتبه المؤرخون وعلماء الاجتماع، إنها كتابة عن الإنسان المختفي خلف الوقائع »[6].

---

[1] بيروت بيروت ، ص 62.
[2] سعد الله محمد غانم ، أطياف النص ، دراسات في النقد الاسلامي المعاصر ،عالم الكتاب الحديث ، ط1 ، 2000 ، ص 13.
[3] بيروت بيروت ، ص 60 .
[4] جهاد عطا نعيسة، في مشكلات السرد الروائي، قراءة خلافية في عدد من النصوص والتجارب الروائية العربية، والعربية السورية المعاصرة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، د.ط ، دمشق ، 2001، ص: 289.
[5] محمد رياض وتار ، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة ، منشورات اتحاد كتاب العرب ،دمشق ، د .ط ،2002، ص101 .
[6] مجاهد عبد المنعم مجاهد ، جمالية الرواية المعاصرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، مصر ، ط 1 1998 ، ص119

فإذا كان " المؤرخ الجبرتي " قد أرّخ للحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون ، بصفته شاهدا ومؤرخا ، فإن الكاتب في رواية " العمامة والقبعة "كلّف شخصية موازية في الرواية وهي الراوي تلميذ الجبرتي ، الذي يكتب أحداث الحملة الفرنسية عبر يومياته ، مخالفا شيخه الذي يدون الأحداث بالسنين ، بل جعله يستقصي الأخبار من أفواه قادة الحملة و علمائها، ويعمل مترجما في المكتبة ، لينتهي في الأخير إلى تدوين ما توصل إليه حيث يقول : «سطرت ما وقع وحصل من الوقائع من ابتداء من تملك الفرنسيس لأرض مصر إلى أن دخلها مولانا الوزير في أوراق غير منظومة في سلك الاجتماع والاتفاق، وكثيراً ما كان يخطر ببالي، وإن لم يكن ذلك من شأن أمثالي، أن أجمع افتراقها وألبسها بالترصيف اتساقها ليكون ذلك تاريخاً مطلعاً اللبيب على عجائب الأخبار وغرائب الآثار وتذكرة بعدنا لكل جيل»[1]، أما صنع الله إبراهيم فكان يستنطق التاريخ ويقلب وثائقه للإجابة على عدة تساؤلات أهمها كما يقول في تصريح لأحد المواقع الثقافية الإلكترونية : « في روايتي "العمامة والقبّعة"كان منطلق الكتابة هو الجدل الذي انبعث منذ سنوات في مصر عن الحملة الفرنسية على مصر، فهل نحتفل بها أم لا نحتفل؟ نحتفل بالمطبعة التي أتت بها الحملة أم بالمدفع الذي يمثّل الوجه الاستعماري، من أجل الفهم عدت إلى تاريخ "الجبرتي" وهو عالم ومؤرّخ»[2] .

أما في رواية " بيروت بيروت " فإن التوثيق والمونتاج السينمائي هو ما لجأ إليه الكاتب لتشكيل السرد ، فالشخصية المحورية المتمثلة في الراوي ذلك الكاتب الذي قدم من مصر إلى بيروت، يسرد يومياته في هذه المدينة المثخنة بالجراح ، تلك المدينة التي يأبى أبناؤها أن يتحدوا على كلمة سواء ، ويتفقوا مثلما اتفقت إذاعاتهم على صوت فيروز ، حيث ورد في الرواية : « هنالك على الأقل سبع إذاعات لبنانية تبث الآن وحتى العاشرة مساء »[3].

فالراوي يستقي معلوماته من الصحف اليومية ، ويوميات الحرب التي أصبحت جزء من يومياته في بيروت ، حيث يعتمد بشكل كبير في رواياته على كثافة التفاصيل وغزارة المعلومات عن الأحداث والأماكن، إضافة إلى الوصف الدقيق الذي يوهم بالواقعية .

كما أن الصراع في لبنان - وإن كان يبدو طائفيا في ظاهره - فإنه يخفي في باطنه حقيقة أن كل طرف يقاتل نيابة عن دولة خارجية أو تيار – سياسي أو ديني - ، فشعار الكل « الذي لا يقبض من جهة ما هو إنسان فاشل غير جدير بالاحترام»[4] ، وهو ما يغفله كثير من المؤرخين ، ولهذا نجد الكاتب يتخذ من السرد الاسترجاعي وسيلة لبسط أسباب الحرب اللبنانية مبرزا دور الدول الأخرى في إثارة الصراع واستمراره ، كما فعلت فرنسا « ففي سنة 1926 أعلنت فرنسا قيام الجمهورية اللبنانية ء وأعطتها علما هو العلم الفرنسي ذاته وقد أضيفت اليه شجرة أرز ، وأطلق بعض الموارنة الوليدة اسم فرنسا الصغرى »[5].

وبعد الانتداب الفرنسي جاء الدور على بريطانيا « و ولد الكيان اللبناني عمليا في حضن الإنجليز سنة 1943 وفقا لصيغة تم الاتفاق عليا بين بشارة الخورى (المسيحى المارونى) ورياض الصلح (المسلم السنى) »[6].

إن استدعاء الأحداث التاريخية من طرف الكاتب " صنع الله إبراهيم " يتخذ شكل المساءلة للتاريخ المتداول،

---

[1] العمامة والقبعة ، ص 228.

[52] حوار صنع الله إبراهيم لموقع الأوان الثقافي ، بتاريخ السبت 12 حزيران (يونيو) 2010 ، http://www.alawan.org/article7789.html

[3] بيروت بيروت ،ص 21.

[4] المصدر نفسه ، ص 74.

[5] المصدر نفسه ، ص 59.

[6] المصدر نفسه ، ص60

وإعادة كتابته من خلال العودة إلى الأسباب البعيدة التي تجاهلها المؤرخون للحرب الأهلية، فالطائفية التي يعزى إليها إذكاء الحرب الأهلية لم تكن من صنع اللبنانيين فقط ، بل أمر خطط له من الغرب ونفذته أياد لبنانية بالنيابة ، وهو ما حول لبنان إلى ساحة لتصفية الحسابات بين الأطراف الإقليمية والدولية .

4- التوثيق والسرد :

يعلن الكاتب " صنع الله إبراهيم " عن مصادره التاريخية صراحة في روايتيه " العمامة والقبعة " و"بيرت بيروت " ، حيث يعترف بأن « خلف كل كتاب هناك دائما كتبا أخرى وأشخاص غير المؤلف ، فسواء بالمعاونة الفعلية أو التعضيد النفسي »[1]، والمخطط التالي يبين لنا أهم المراجع التي استمد منها الكاتب مادته التاريخية :

الوثائق التاريخية	الرواية
- عجائب الاثار في التراجم والأخبار" للجبرتي. - مجلدات "وصف مصر" التي وضعها علماء الحملة . - دراسةالأمريكي ج. كريستوفر هيرالد الرائعة "بونابرت في مصر. - "عبد الله جاك مينو" لمحمد فواد شكري (1952). - "الحملة الفرنسية في مصر" هنري لورنس ، ترجمة بشير السباعي. - مذكرات الضابط هويه إعداد باتسي جمال الدين (2005). - مذكرات الضابط مواريه (1984) ترجمة كاميليا صبحي (2000). - "الخطط التوفيقية لعلي مبارك (طبعة1969)، - تاريخ عبد الرحمن الرافعي (طبعة 1979) - :"ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية نيللي حنا: ، "ترجمة رؤوف عباس(2004) - "بيوت القاهرة" ترجمةحليم طوسون (1993). - تجار القاهرة في العصرالعثماني" ترجمة رؤوف عباس (1997) - "فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية"لاندريه ريمون (ترجمة زهير الشايب. - الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر"لأندريه ريمون - وثائق ودراسات ندوة عبد الرحمن الجبرتي ،	العمامة والقبعة
- حرب لبنان ، جلال محمود - يوميات الحرب اللبنانية ، مركز التخطيط منظمة التحرير الفلسطينية - مذبحة لبنان الكبرى ، سامي منصور - تل الزعتر ، الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية	بيروت بيروت

[1] المصدر نفسه ، ص 264.

- خريف الغضب ن محمد حسنين هيكل - الحزب وتجربة الحركة الوطنية اللبنانية ، محسن إبراهيم . مقالات بكر الشرقاوي ن روز اليوسف. - صباح الخير يا وطن ، رؤوف مسعد. - الناس والحصار ، محجوب عمر - كبوشي ، حيدر حيدر. - أوراق من دفتر الولد العاملي ، - كوابيس بيروت ، غادة السمان - حكاية زهرة ، حنان الشيخ . - الجسسبل الصغير ، إلياس خورة. - BEIRUT FROM THE DUBBLE , E .ELISAS. -TRAGEDY OF LEBNON.BYJOATHAN.	

فقد لجأ الكاتب إلى جمع المصادر التاريخية من وجهات نظر مختلفة والخروج منها بنتائج ، وحاول توظيفها من خلال السرد ولعبة لتخييل، وكأنه بهذا المزج بين التاريخي والمتخيل يجعل القارئ في حيرة ،بين ما هو واقعي وما هو متخيل ، بين الحقائق التاريخية والإبداع السردي ، فصنع الله إبراهيم يعتبر أن توظيفه للتاريخ في الرواية جزء من عملية الإبداع ، ولا يعني الواقع، فهو يوضّح وجهة نظره بقوله : « الرواية تعني كذبة ، يعني أحكي حكاية مؤلفة ومتخيلة ،ومن حقي أن أستخدم كجزء من هذا البناء تفاصيل حقيقية في الحياة و التاريخ والجغرافيا وأي مجال ،هذا يغني عملية التخييل ،عملية الكذب التي تتم، وفي الوقت نفسه يجب ألا تؤخذ ككتاب تاريخ »[1].

فما يوظفه الكاتب – حسبه- في بناء الرواية من أحداث قد تكون واقعية ، يغني عملية التخييل ويجعلها تنفتح على دلالات متعددة ، وهو ما يجعل العمل الروائي ممتعا ، ففي نظر " صنع الله إبراهيم " « الرواية مجال إمتاع أنا أمتعك بأن أحكي لك حكاية ، ومن حقي أن أستخدم مادة معينة ، وهذا ما يجعلني مختلفا عن أي روائي آخر ، كما هو حق كل روائي ، وفي النهاية يجب ألا تؤخذ الرواية مأخذ التاريخ »[2].

فالكاتب يقرّ بتوظيف المادة التاريخية في أعماله الروائية ، ويرى بأنه من حق أي كاتب أن يبحث عن ما يحقق المتعة للقارئ دون مراعاة مصدرها ، وهي بذلك ميزة تميزه عن غيره من الكتاب ، منبها على أن قراءة ما يكتب في الرواية يجب أن لا يؤخذ مأخذ التاريخ ، فلكل خصائصه ومميزاته.

5- المراوغة السردية للزمن التاريخي :

النص التاريخي وإن تماهى مع النص الروائي أحيانا إلا أن هذا لا يعني أنه تحول إلى وثيقة تاريخية ، فلكل خصوصياته ومميزاته ، فالتراتبية الخطية للزمن التي ينتهجها كاتب التاريخ لا تلزم الكاتب الروائي الذي يتعمد كسر تراتبية

[1] حوار صحفي مع اصنع الله إبراهيم لجريدة الإمارات اليوم ، يوم 10-05-2015 موقع الجريدة على النت .
[2] . المرجع نفسه .

الزمن ، من خلال توظيف تقنيات السرد من استرجاع واستشراف ، ذلك أن « زمن القصة يخضع بالضرورة للتتابع المنطقي للأحداث ، بينما لا يتقيد زمن السرد بهذا التتابع المنطقي »[1].

فالكاتب وظف تقنية الاسترجاع من خلال العودة إلى ماضي شخصياته ، سواء للتعريف بها أو إبراز بعض مواقفها من بعض القضايا ، ففي رواية العمامة والقبعة ، نجد عدة محطات للاسترجاع منها :

« بالأمس ذاع خبر هزيمة مراد بك في إنبابة » [2] ، وهو استذكار ذو سعة صغيرة بحكم أنه يمتد (14سطرا) فقط .

وتشغل الاسترجاعات ذات السعة القصيرة حيزا كبيرا من الرواية ، نظرا لاعتماد السارد عليها في التعريف بشخصياته من خلال العودة إلى ماضيها كل مرة ، ومثال ذلك في تعريفه بقصر الشيخ الألفي وتاريخ بنائه ، حيث عاد السرد إلى سنة ماضية « فقد شيد الألفي قصره في السنة الماضية ...»[3] ، ويشغل هذا الاسترجاع حوالي صفحتين (23-24) من الرواية، وكذلك عندما يعود السرد إلى الوراء بعشرين سنة على لسان الجبرتي ليحكي قصة الألفي في عشرة أسطر « لقد جلبه بعض التجار من الأناضول منذ عشرين سنة ، واشتراه مراد بك بألف أردب من الخلال فسمي بالألفي ، وكان جميل الصورة فأحبه وأعتقه وجعله كاشفا »[4].

وكذلك في التعريف بالشيخ كريم (حوالي 11 سطر) من صفحتي (51-52) من الرواية ، ثم قصة الشيخ الشرقاوي والتي رجع فيها الجبرتي بذاكرته ثلاث سنوات إلى الوراء ليعرف الراوي بهذا الشيخ ، وقد غطت حيزا من الرواية يقدر بحوالي (24 صفحة).

وقد يورد الكاتب بعض الاسترجاعات غير محددة بمدة ، ولكن يمكن للقارئ استنتاجها من الملفوظات التي وردت فيها، ومنها « كنا قد تعلمنا سويا في الكتاب ، وجئنا معا من الصعيد هربا من الطاعون ،واضطر للعمل في وكالة أقمشة ليعول أمه ، ولم تنقطع صلتنا »[5] ، فمن خلال " تعلمنا سويا في الكتاب " يمكننا أن نقدر الزمن في هذا الاسترجاع وهو زمن صبا الراوي ، وهو نفس الزمن الذي قصده الراوي - في حديثه لبولين - عندما كان يحكي عن ماضيه « ورويت لها كيف تعلمت القراءة والكتابة ، وحفظت القرآن في كتاب قريتي ، ثم مات أهلي في الطاعون »[6].

وأحيانا يلجأ السارد إلى استرجاع مبهم المدى، حيث لا يكاد يعرف القارئ سوى أنه عودة للوراء، في غياب قرينة زمنية تدل عل مداه، مثل ما هو الحال في قصة شيخ العميان التي حكاها الجبرتي (ص 71-72)، وقد وظف هذا الاسترجاع للتعريف بهذه الشخصية، وسبب وصولها إلى هذه الخاتمة (الإعدام).

أما في رواية " التلصص " فإن شخصية الراوي تعود كل مرة إلى زمن حياة الأم ، تلك اللحظات التي يمارس فيها السرد استرجاعا إلى زمن سابق " يقترب وجه أمي المدور، تهدهدني مرددة الأغنية المنبعثة من الراديو" :نام يا حبيب الرووح"[7].

وفي رواية " بيروت بيروت " يعود السرد إلى أحداث سابقة ، مخلخلا الترتيب الزمني للتاريخ ، إما لسرد وقائع

---

[1] حميد لحميداني ، بنيية النص السردي ، من منظور النقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1، 2000 ، ص 73.
[2] العمامة والقبعة ،ص 5.
[3] المصدر نفسه ، ص 23.
[4] المصدر نفسه ، ص 33.
[5] المصدر نفسه ، ص 42.
[6] المصدر نفسه ، ص 88.
[7] التلصص ، ص 7.

تجاوزها زمن الحكي ، أو التعريف بماضي إحدى الشخصيات في الرواية ، مثل تلك الصفحات التي خصصها السارد لأصل المشكلة اللبنانية والاتفاقات التي تمت بين أطياف المجتمع اللبناني ، والتي حملت بذور التفرقة والانشقاق ، مما أدى إلى اندلاع الحرب الأهلية في لبنان ، كما أن الراوي عاد إلى أيام الدراسة ، ليعرف القارئ بشخصية صديق الراوي " وديع " حيث يقول :

« عرفت وديع مسيحة عندما التحقت بالمدرسة الثانوية ، كنا ندرس في نفس القاعة ،تجددت علاقتنا في الجامعة ، دخلناها معا بعد قيام الثورة بشهور »[1].

إن هذا الاسترجاع يحدد فترة زمنية من زمن الرواية ، وهي فترة قيام الثورة المصرية ، حيث وظف الكاتب آلية الاسترجاع لبناء شخصيتي الراوي وصديقه وديع ، حيث تبدو شخصيات ثائرة ومتحمسة ومتشبعة بالثقافة الغربية « فقد ألفينا أنفسنا في مجموعة واحدة من شباب متحمس، نقرأ سارتر وجوركي ولوفافر ، ونهاجم طه حسين دفاعا عن الاشتراكية الواقعية ، وحكومة العسكر دفاعا عن الديمقراطية »[2] ، ليكتمل وصف الشخصيتين بالدخول إلى السجن « ودخلنا السجن بعد ذلك في أوج معركة عبد الناصر مع اليسار »[3] ، حيث تتميزا بالثبات على المبدأ والتضحية من أجله أجله .

وهي نفس التقنية التي وظفها الكاتب في رواية " التلصص " حين يعود دائما إلى علاقة "الراوي " بأمه تلك العلاقة التي تهيمن على السرد و تنسج خيوطه بين الماضي والحاضر في حياة شخصية الراوي ، وهي بذلك تبعد صفة التتابع الزمني الذي تقتضيه الكتابة التاريخية ، ذلك أن «الجنس الروائي بشكل عام يقدم أو يحاول أن يقدم امتلاكا جماليا و معرفيا للراهن التي تصدر الرواية أثناءه -زمانا و مكانا - و للواقع العام الذي يحاول الروائي اكتناه جوهره و تقديم رؤيته عنه و له »[4].

6- الشخصيات التاريخية بين المرجعية والتوظيف :

6-1- الشخصيات التاريخية :

تنتمي هذه الشخصيات في الأصل للتاريخ ، ويتفرع عنها عدة أشكال ممكنة وهي : المرجعية السياسية ،والمرجعية الدينية ، والمرجعية الثقافية ، وغيرها من المجالات المندرجة في التاريخ ، إن هذه الأشكال «تحيل إلى معنى تام و قار تتضمنه ثقافة ما»[5]، بحيث تتحقق مقروئيتها حسب مشاركة القارئ في استيعاب تلك الثقافة ، ولذلك وجب توضيح تلك الخلفية المعرفية التاريخية لهذه الشخصيات لأن اندماجها في الملفوظ الروائي يجعلها تعمل أساسا على التثبيت المرجعي ، وذلك بإحالتها على النص الكبير الذي تمثله الثقافة .

إن صنع الله إبراهيم في رواياته الثلاث ، لم يكن هدفه تاريخيا خالصا، فالشخصيات التاريخية المذكورة لها شأن آخر غير التاريخ، فتوظيفها يعطي بعدا خاصا للمغزى المعبر عنه في الرواية ، ويساعد على الإحاطة به ، والشخصيات التاريخية ذكرت في النص الروائي إما آثارا تاريخية هامة ، وإما أسماء لشخصيات أسندت لها بعض الصفات ، أو بعض الأعمال التي أنجزتها أو نسبت إليها بعض الأقوال ، وهي مذكورة فقط دون أن تشارك في الأحداث ، ولأن الشخصيات

[1] بيروت بيروت ، ص 21
[2] المصدر نفسه ، ص 21.
[3] المصدر نفسه ، ص 21.
[4] محمد كامل الخطيب :الرواية و الواقع ،دار الحداثة ، بيروت ، د ط ، 1981 ، ص15
[5] إبراهيم صحراوي ، م .س ، ص 157.

التاريخية في الروايات كثيرة فإننا سنقتصر على البعض منها فقط .

6-1-1- جمال عبد الناصر :

استدعى الكاتب شخصية هذا الزعيم العربي ، الذي ارتبطت صورته بالثورة والتحرر من عبودية الملكية ، ليبين تأثير سياسته على الشعب ، ففي خضم التجارب السياسية تطفو إلى الوجود قضية « البحث عن الهوية وكما أنّ لكلّ إنسان هويته فإنّ لكلّ شعب هوية خاصّة به ، والبحث عن معرفة التاريخ لا يعني فقط البحث عن عدد المعارك والأسلحة المستعملة وعدد الذين سقطوا في الميدان والغنائم ، فالبحث في التاريخ هو البحث في حركة المجتمع عبر متغيرات الأزمنة والأمكنة »[1] ، فالكاتب بقوله :« إن عبد الناصر قتل فيهم كل قدرة على العمل الجماعي »[2] ، يبرز عيوب الزعيم العربي ، التي يرفض المؤرخون الرسميون الحديث عنها ، وهو دور منوط بالرواية إذ ْتتعرض لما غفل عنه المؤرخون وتنتصر للفئات المهمشة في المجتمع ، فصنع الله إبراهيم بذلك أراد القيام « بتصحيح ما جاء به المؤرخ ، ويذكر ما امتُنع من قوله »[3]، معيدا قراءة أخرى لمرحلة مهمة من تاريخ مصر في قالب سردي روائي .

فاستدعاء شخصية " عبد الناصر " في هذا النص الروائي ، جاء ليبرز وجها آخر صنعه الإعلام لهذا الزعيم كقائد للوحدة العربية ، كما يصورها الفيديو الذي شاهده "الراوي " مع "أنطوانيت " حيث تظهر مجموعة من المتظاهرين اللبنانيين مرددين « بدنا الوحدة باكر باكر مع هذا الأسمر عبد الناصر »[4] ، ولذلك جاء هذا الاستدعاء خادما لفكرة فشل سياسة ما بعد الثورة ، حيث كانت شخصية عبد الناصر هي السلم الذي يوصل إلى هذه الفكرة، والكاتب بذلك يجسد « المعنى العميق لدلالة الخطاب الروائي ، الذي يهدف به إلى التواصل مع القارئ ، وتبليغه رسالة عن وضع سوسيولوجي تاريخي بمحددات وظروف ملابساته »[5] ، وهو بذلك قد« أرح لهذا الظرف التاريخي من زاوية الرؤية الإيديولوجية التي يتبناها »[6].

6-1-2- كليوباترا:

وذكرت أول الأمر في ملفوظات " بولين " في رواية العمامة والقبعة ،حين أبدت إعجابها بمسلة كليوباترا « التي نجحت بدهائها وجمالها في إيقاع أنطونيو في حبائلها وتزوجته ، وجلست على عرش من الذهب»[7]، ثم ذكرت مرة أخرى على لسان " جاستون " في معرض حديثه عن علاقة نابليون ببولين قائلا :« إنه سمع الجنود يذكرونها باسم كليوباترا»[8].

والسمات السياقية الممكنة لكليوباترة هي :

- الملكة الشرقية صاحبة الشخصية القوية .
- المرأة اللعوب التي أوقعت القائد " أنطونيو ".

---

[1] محمد زتيلي ، فواصل في الحركة الأدبية والفكرية الجزائرية ، دار البعث ، قسنطينة ، ط1، 1984،ص 144.
[2] التلصص ، ص 56
[3] فيصل دراج ، الرواية وتأويل التاريخ ، مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع, 2004 ، ص6.
[4] التلصص ، ص 78.
[5] حسين خمري ، فضاء المتخيل في الرواية ، منشورات الاختلاف الجزائر ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، لبنان ، ط1، 2002، ص 212
[6] علال سنقوقة ، المتخيل والسلطة ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، د ط ، 2000 ، ص 169.
[7] العمامة والقبعة ،ص 93.
[8] المصدر نفسه ، ص 157.

- المرأة التي تتميز بالمكر والخداع .

وقد جاء توظيف هذه الشخصية للدلالة على تشابه القيام بنفس الأفعال للبلوغ لنفس الأهداف بين شخصيتي "بولين " وشخصية "كليوباترا "، فكلاهما عمل المستحيل للوصول إلى المجد ، واعتلاء العرش ، وقد استعملت كليوباترا جمالها في الإيقاع بأنطوان ، وهو نفس السلاح الذي توظفه بولين للإيقاع ببونابرت ،كما أنها تتوق للمجد نفسه من خلال تقاسم الجلوس على كرسي الإمبراطورية مع نابليون ، حيث جاء في الرواية « وإنه سمع الجنود يذكرونها باسم كليوبترا وأحيانا يدعونها مدام جنرال»[1]

6-1-3- عنترة بن شداد :

جاء ذكره في معرض حديث الراوي عن الاستعداد للحملة على الشام « استمعنا إلى منشد يحكي قصة عنترة بن شداد»[2]، ويأتي توظيف هذه الشخصية للدلالة على :

- النخوة وحماية القبيلة.
- الإباء العربي الرافض للعبودية .
- الذود عن الشرف .
- الشجاعة والإقدام .
- الرغبة في الانتماء إلى المجموعة .

وهو ما استعاره المؤلف لتوافقه مع موقف الحملة على الشام التي كان الجميع يخطط لها، كما أن مثل هذه القصص ارتبط أساسا بوجود المستعمر بالبلاد العربية، لحث الشعوب واستنهاض هممها للمقاومة .

6-1-4- الأهرامات :

اعتمدت الأهرامات مرجعية في هذه الرواية نظرا للقيمة التاريخية لهذه الآثار في تاريخ مصر الحضاري ، التي تعد إثباتا لوجودها عبر التاريخ ، ورغم أن النص الذي وردت فيه صغير بالنسبة لحجم النص الروائي ، إلا أن الأهمية تكمن في توظيفها المتنوع ، حيث يقول " رولان بارث " في هذا المعنى « إن إشارة الكاتب إلى شيء ما بصورة عابرة في السرد ، لا بد أن يكون له معنى فيما يأتي من السرد ، وينبغي أن تنتظر أن يكون لذلك الشيء دور فيما يأتي من بقية السرد »[3].

وقد ورد ذكر الأهرامات في ملفوظات الرسام (دايتون) ، حينما كان يبدي تناقضا في مشاعره عند مشاهدته لها أول مرة ، بين الخوف والإعجاب ، وقد جاء توظيف الأهرامات في الرواية للدلالة على عظمة الحضارة المصرية وتعمق جذورها في التاريخ ، فالأهرامات لا تزال إحدى عجائب الدنيا السبع ، وطريقة بنائها بقيت لغزا مستعصي الحلول ، كما أنها إنتاج محلي خالص ،لا دخيل فيه ، وهو ما جاء على لسان الرسام دايتون في الرواية حيث يقول : « اكتشفت أن المصريين لم يستعيروا شيئا من غيرهم ولم يضيفوا زخرفا واحدا دخيلا ، ولا حشوا واحدا ، فأبنية المعابد تتسم ببساطة ونظام آسرين ، سموا بهما إلى الذروة»[4].

---

[1] المصدر نفسه ، ص 146.
[2] المصدر نفسه ، ص 140.
[3] حميد لحميداني ،م .س ، ص 29.
[4] العمامة القبعة ، ص 187.

فالسمو إلى الذروة لا يتحقق إلا بالاعتماد على النفس ، غير أن الأهرامات تدل من جهة أخرى « عن نظام الحكم الاستبدادي الذي أنتجها والشعب الراضخ الذي بناها »[1]، إن لها دلالتان متناقضتان العظمة والخضوع ، عظمة الحاكم واستبداده وخضوع المحكوم ورضوخه ، وورد ذكر الهرم مفردا عندما أكد الجبرتي للراوي صحة « أن مراد بك وزوجته نفيسة تبادلا الإشارات بالمشاعل من قمة الهرم ، وسطح قصرها بالقاهرة »[2] ، وفي هذا دلالة الربط بين مقاومة الأهرامات لعوامل الفناء عبر الزمن ومقاومة مراد بك للغزاة ، كما أن للأهرامات دلالة السبق ري للشرق عن الغرب ، فالفرنسيون قدموا إلى مصر لينشروا الحضارة غير أنهم فوجئوا بما وجدوه بها من آثار تدل على عظمة الحضارة المصرية القديمة .

7- مرجعية النص التاريخي عند صنع الله إبراهيم بين الواقع والمتخيل:

اختار " صنع الله إبراهيم " التاريخ مرجعا لرواياته الثلاث ، حيث أعلن عن مراجعه التي استند إليها صراحة في روايتي العمامة والقبعة و "بيروت بيروت " [3]، فماهي حدود الواقع والمتخيل في السرد الروائي عند "صنع الله إبراهيم " ؟

7-1- توظيف الواقعي في السرد :

استغل الكاتب المادة التاريخية لتشكيل السرد فزاوج بين ما هو واقعي و ما هو تخييلي، وقد تجلى ذلك في توظيفه لأحداث واقعية متمثلة في الحملة الفرنسية على مصر (1791-1803) في رواية العمامة والقبعة ، ووظف في رواية "بيروت بيروت " أحداث الحرب الأهلية اللبنانية ، أما في رواية التلصص فكانت مرحلة حكم الملك فاروق وانتكاسة 1948 موضوعا لها ، ذلك أن « مادة التاريخ مادة مغرية للروائي لأنها تقوم على السرد ، والرواية تقوم على السرد كذلك ، مما يسهل على الروائي إلى سرد فيه طواعية ظاهرة »[4] ، فهل استطاع الكاتب إحداث تغيير في الخصائص المميزة للسرد التاريخي والمتمثلة في « هيمنة صيغة الفعل الماضي ، وسرد الأحداث على أنّها شيء مضى وانتهى ، و مراعاة التسلسل الزمني للأحداث ، وهيمنة ضمير الغائب ، عدم مشاركة الراوي / المؤرخ في الأحداث» [5].

إضافة إلى الأحداث التاريخية وظف " صنع الله إبراهيم " أسماء شخصيات حقيقية عربية وأجنبية منها السياسية والثقافية والعسكرية و يمكن اختصارها في الجدول التالي :

الرواية	الشخصيات الأجنبية	الشخصيات العربية
العمامة والقبعة	نابليون بونابرت – كليبر – هوية –منو - مونج - فنتور - برتوليه - كفاريللي	الشيخ الجبرتي –الشرقاوي – العطار –كريم بك – السادات – البكري ....
بيروت بيروت	ريغن – شيمون بيريز – هنري كيسنجر – مردخاي جور – كسيجين	بيار الجميل –حافظ الأسد – الخميني – القذافي –ياسر عرفات – فيروز – جنبلاط – عبد الحليم خدام –كميل شمعون – أمين الجميل – أبو جهاد .

[1] المصدر نفسه ، ص 187.
[2] المصدر نفسه ، ص 189.
[3] ينظر العمامة والقبعة ، ص 329 ، بيروت بيروت ، ص 264
[4] نضال الشمالي، الروا ية والتاريخ، عالم الكتب الحديث ، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2006 ، ص 124.
[5] محمد رياض وتار م س، ص110.

وبما أن النص التاريخي « يقبل الخضوع للتقييم الحقائقي بينما يقبل الخطاب الروائي التقييم الأيديولوجي ، وذلك بسبب خضوع الأول لثنائية البث الحقائقي (الصدق والكذب) قياسا إلى ما يفترض إنه واقعي ، وعدم خضوع الثاني لهذه الثنائية »[1] ، فإن الروائي يكون في ورطة تصنعها سلطة التاريخ ليكتشف القارئ ذلك التماهي بين التاريخي والمتخيل ، فصنع الله إبراهيم دس ّ شخصياته المتخيلة داخل غياهب التاريخ ، وجعلها تلبس لباس الماضي وتنطق بلسانه ، مما يحول الرؤية السردية والأفكار الإيديولوجية إلى مساحات حوارية ترصد المشهد التاريخي والسياسي للواقع ، فشخصية لراوي في رواية العمامة والقبعة ، ترتسم من ورائها ملامح التاريخ المهمش أو المسكوت عنه ، إذ تؤرخ لما يراه المؤرخ غير مهم «يركز الشيخ في طياراته على الأحداث العامة ويتجنب الحديث عن الأمور الشخصية. قررت ألا أقلده ورويت واقعتي مع الجارية» ،[2] وكما يرى " الدكتور محمد عزام " بأن « المؤرخ الجيد هو الروائي »[3]، فهو « عندما يلجأ إلى استحضار النص التاريخي يقوم بتفكيك بنيته في بنية النص الثاني ، الذي لا يسمح لها أن تخرج أو تتجاوز حدود الكتابة الأدبية »[4].

ذلك أن الروائي حين يتحرر من قيود الكتابة التاريخية التي تمنعه من الإبداع، يعيد صياغة الوقائع التاريخية وفق جمالية أدبية ، توهم القارئ بالواقعية ، ففي رواية العمامة والقبعة يستدرك الراوي الذي هو شخصية متخيلة على شيخه الجبرتي ما فاته « بحثت عن الورقة التي دون فيها أحداث اليوم العشرين من شهر ربيع الأول ، الذي يوافق أول سبتمبر وتتبعت ما دونه بعد ذلك فوجدت أنه انتقل مباشرة بعدها إلى أحداث الأيام التالية دون أن يذكر شيئا عن اعدام محمد كُرّيم. تعجبت للأمر: هل نسي؟. تصفحت لأوراق القليلة التالية حتى تاريخ اليوم فلم أجد أثرا للخبر. وكان أحيانا إذا فاته شئ يسجله في الأيام التالية. سررت لأني دونت في أوراقي كل التفاصيل »[5].

ويأتي تساؤل السرد في ثنايا هذا المقطع : هل نسي ؟ ليفتح باب التأويل أمام القارئ ، ويذكي في نفسه شرارة الشك في التاريخ المكتوب ، وما مدى صحة الأحداث التاريخية التي قرأها عن الحملة الفرنسية في مصر ، هل ما وقع حقا ؟ أو ما أُريد له أن يصل إلينا ، أو ما سمحت به ظروف الكاتب ؟ وهو تساؤل يحمل رؤية الكاتب للتاريخ ، فكثيرا ما يضع الروائي التاريخ ضمن السياقات الجمالية المرتبطة أساسا برؤية التاريخ في بناء خطابه الروائي ، مما يجعلها تبني تعالقات جديدة بين الحدث التاريخي ورؤية النص.

وفي رواية " بيروت بيروت " يستند الكاتب إلى تقنية الفلاش باك ليعود إلى ماضي التاريخ اللبناني ، مستفتحا السرد بقوله : « وفي ضوء التاريخ ، بدت الحرب الأهلية التي اشتعلت في أبريل (نيسان) 1975» [6]، [6]، وبهذه الإشارة اللغوية (في ضوء التاريخ) يلمس القارئ بأن الكاتب يحيله إلى التاريخ كمرجعية لما سيأتي من السرد ، وهو ما يفسر ذلك النسق التتابعي للتاريخ الذي تضمنه السرد في هذه الرواية من الصفحة 58إلى الصفحة 70 ، لتختفي جمالية اللغة لسردية أمام طغيان آلية التقرير التاريخي ، فالكاتب لم يكلف نفسه عناء ، غير نقل الأحداث وتدوينها ، غير أنه يمكن تفسير ذلك بوضع المتلقي في صورة تاريخية مختلفة ، من خلال العودة إلى الأسباب

---

[1] عبد اللطيف محفوظ ، الرواية التاريخية وتمثل الواقع ، مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق -سوريا ، العدد438 ، السنة السابعة والثلاثون - تشرين الأول 2007 ، ص14 .

[2] العمامة والقبعة ، ص 8.

[3] محمد عزام ، فضاء النص الروائي ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، سوريا ، ط1 ، 1996، ص 178.

[4] واسيني الأعرج ، الرواية التاريخية أوهام الحقيقة ، مجلة الثقافة ، الجزائر ، ع 19 ، 2009 ، ص 22.

[5] العمامة والقبعة ، ص 23.

[6] بيروت بيروت ، ص 58.

الحقيقية - من وجهة نظر الكاتب - التي تسببت في الحرب الأهلية اللبنانية ،ذلك أن " الفلاش باك " الذي وظفه الكاتب قد « أسهم في كشف الخلفية التاريخية للمضامين الجيدة داخل الرواية »[1] .

فصنع الله إبراهيم يريد « تعميق معرفة القارئ الذاتية وفتح آفاق لإقامة علاقة حوارية بين ذاتية تعارض تأطير الأحداث التاريخية من منظور أحادي » ،[2] وهو بذلك يثير غريزة الشك لديه في الكتابة التاريخية ، كما رأينا سابقا ، من خلال رؤية الكاتب للتاريخ .

وبما أن «كل كتابة تتغدى على إيديولوجيا وتحاول تفجير أخرى»[3]، فإن صنع الله إبراهيم بنقله للواقع التاريخي « يرمي من وراء ذلك إلى تقديم رؤية للعالم الذي يعيش من خلال خلق هذا العالم كما يتصوره أو يتخيل أن يراه ، أو كما يراه وفق موقفه منه »[4] ، فهو بذلك يضع أرضية مشتركة مع القارئ ، مانحا إياه مفتاح قراءة ، يقربه لفك شفرات النص الروائي ، ومعرفة كيف « أرخ لهذا الظرف التاريخي من زاوية الرؤية الإيديولوجية التي يتبناها»[5]، والتي من خلالها يعلن رفضه للرواية الرسمية للتاريخ ، وتجاوزه لهالة القدسية التي تلفه بتحويله إلى مادة خاضعة للسرد .

7-2- المتخيل وتأطير الواقع:

يعبر التخييل بالنص من التاريخي إلى الروائي « فالخيال نفسه عمل من أعمال الذاكرة ، وإن قدرتنا على التخييل ، ليست سوى قدرتنا على تذكر ما مررنا به من قبل وتطبيقه على موقف مختلف ، فالخيال هو الوجه الآخر من الذاكرة ، سواء في حفظ الصور وتنظيمها أو إعادة تركيبها وابتكارها» [6].

و في رواية "بيروت بيروت " ترك " صنع الله إبراهيم " عنان السرد للراوي، متمثلا في شخصية الكاتب المصري ، الذي قدم إلى لبنان من أجل طبع كتابه ، هذه الشخصية المتخيلة ، التي أراد لها الكاتب أن تخترق عوالم التاريخ ، من خلال اللقاء بشخصيات من خيال الكاتب وهم : وديع و انطوانيت وغيرهم ، حتى لا يقع في رتابة الكتابة التاريخية الجافة ، ويفلت من رقابة المؤرخين ، ليبوح بأفكاره كما يرى "ميشال فوكو " حين يقول : «على الكتابة أن تقول في الأخير ما كان منطوقا بصمت»[7].

ومن ذلك ما ورد في الرواية تعليقا من الراوي على خطاب الرئيس " السادات " بقوله متهكما : « لم يبق إلا الانضمام إلى حلف الأطلنطي ، أو عقد اتفاقية دفاع مشترك مع إسرائيل»[8] ، وفي هذا المقطع تتجلى أفكار الكاتب الذي يرفض سياسة " السادات " الذي وقع على اتفاقية "كامب ديفيد " مع الصهاينة ، وبذلك يكون « الواقع الروائي هو عامة رفض للواقع السائد »[9]، فالنص الروائي استدعى شخصية السادات ليحاكمه على تفريطه في الكرامة

---

[1] واسيني الأعرج، الطاهر وطار- تجربة الكتابة الواقعية- المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1989 ، ص 53.
[2] ماري تيريز عبد المسيح ، القراءة التاريخية للنصوص ، العدد 67، 2005، ص 173.
[3] حسن نجمي ، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت والدار البيضاء ، ط 1 ، 2000 ، ص 217.
[4] سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، ص 141 .
[5] علال سنقوقة ، م س، ص .169
[102] جابر عصفور ، زمن الرواية ، دار المدى للثقافة و النشر، دمشق ، ط1 ، 1999 ، ص 247.

[103] ميشال فوكو ، نظام الخطاب ، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير ، بيروت ط1، 1984، ص19.
[8] بيروت بيروت ، ص 128.
[9] محمود أمين العالم ، يمنى العيد ، نبيل سليمان ، الرواية العربية بين الواقع والالتزام ، دار الحوار ، سوريا ط1 ، 1986 ، ص14.

العربية ، وتنازله للعدو الإسرائيلي والغرب، ليصل الكاتب بقارئ الرواية إلى أن بيع القضية والتنازل على الكرامة هو الثمن الذي يجب أن يدفعه كل من يريد الاحتفاظ بكرسيه مثل السادات ، أو يريد الشهرة والمال مثل الراوي الكاتب .

حيث ورد في الرواية هذا الحوار :

« - مكان واحد يمكن فيه طبع هذا الكتاب ، وتوزيعه بسهولة .

- تساءلت في حيرة : أين ؟
- لم أكن أظن أنك بهذا الغباء ، إسرائيل طبعا ، هناك أكثر من مليون وربع مليون فلسطيني ، يتعطشون لكلمة باللغة العربية »[1].

فاستدعاء شخصية السادات جاء لبناء شخصية الراوي وفق علاقة تقابل و تضاد بينهما ، حيث : تبدو شخصية الراوي قوية ، متشبعة بروح الانتماء، ترفض التنازل عن مبدأ معاداة إسرائيل ، والتعامل مع دار نشر إسرائيلية رغم حاجته للمال ، حيث:

السادات	الراوي
- عقد اتفاق مع إسرائيل - الحفاظ على الزعامة بكسب ود أمريكا وإسرائيل - التنازل على المبادئ	- رفض التعاقد مع دار نشر إسرائيلية - رفض الشهرة والمال - الحفاظ على المبادئ

فصنع الله إبراهيم لا يتردد عند نقله لأحداث تاريخية واقعية في ثنايا السرد، أن يبدي رأيه في القضايا وفق موقفه الأيديولوجي منها ، مستندا على الاختلاف الموجود في الوثائق عند معالجتها للحدث التاريخي .

7-3- نقد الواقع من خلال إسقاطات التاريخ :

يمثل المكان المنبت الأول للإنسان ، يكتسب قدسيته من الشعور بالانتماء إليه ، ولهذا كان الدفاع عنه شرف، والموت دونه عزة وكرامة ، فهو الذي يحوي الذاكرة والتاريخ ، وإليه ينتهي نسب الإنسان ، ويعتبر المكان في الرواية عنصرا هاما في التشكيل السردي ، ففيه تتحرك الشخصيات ، وضمنه تقع الأحداث فهو « الوعاء الذي تزداد قيمته كلما كان متداخلا بالعمل الفني ، فالمكان هو " الجغرافية الخلاقة " في العمل الفني »[2]، ذلك أنه « يساهم في خلق المعنى داخل الرواية ، بل إنه أحيانا يمكن للروائي أن يحول عنصر المكان إلى أداة للتعبير عن مواقف الأبطال من العالم »[3].

ومن هذا المنطلق فإن استدعاء " صنع الله إبراهيم " للمكان التاريخي في رواياته -محل الدراسة – جاء ليؤدي وظائف عديدة ، لعل أهمها الوظيفة النقدية، التي جاءت لتترجم مواقف الكاتب من القضايا التي عايشها ، كونه صاحب اتجاه فكري يساري .

تعتبر الوظيفة النقدية من أهم الوظائف الخارجية التي يؤديها المكان، إذ تتمثل في «جعل المكان وسيلة لتحقيق وظيفة نقدية يكون من خلالها تقديم جملة من الآراء السياسية والفكرية المتعلقة بالمجتمع ، انطلاقا من مواقف الروائي ،

---

[1] بيروت بيروت ، ص 260.

[2] ياسين النصير ، الرواية والمكان ، دراسة المكان الروائي ، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع ، دمشق سوريا ، ط2 ، ، 2010، ص50.

[3] حميد لحميداني ، م س ، ص70.

والمكان بإنجازه لهذه الوظيفة يكون متساوقا وإيديولوجية الروائي »[1]، ففي رواية العمامة والقبعة يتعجب الراوي من عدم حديث خطيب الأزهر الشريف عن دخول الفرنسيين إلى مصر : « إنضممت إلى المصلين في صحن الجامع ،كانت وجوههم متوجسة تنتظر ما سيقوله الخطيب ، لكنه لم يخرج عن المألوف في كل جمعة ولم يشر بشيء لدخول الفرنساوية »[2]، فتجاهل الخطيب للغزو الفرنسي إقرار بأحقية وجوده ، والمعروف أن المساجد عند المسلمين كانت هي أول منارات الدفاع عن الوطن ، والجهاد في سبيله ، فكيف يتخلى الأزهر عن هذه الرسالة ، ذلك ما يجيب عنه السرد في الرواية في حوار الراوي مع الشيخ الجبرتي :

«- تعجبت : كيف صار إذن شيخا للأزهر

- قال : الله ابتلى الأزهر بأهل السوء الذين يضخمون من حجم عمائمهم ويوسعون من أكمامهم حتى يبدون في هيئة المعلمين ، ويتأبطون عددا من كتب الأصول أينما ذهبوا بهدف اصطياد العطايا»[3].

وفي رواية " التلصص " ينتقد" صنع الله إبراهيم " توظيف هذه الهيئة الدينية في خدمة السياسة ، وتعضيد أوامر الحكام :

« يسأل الحاج"عبد العليم :"قريتم" فكري أباظة"؟ يبطالب بفرض الضرائب التصاعدية وتحديد الملكية وتوزيع الأراضي ومحاربة الغلاء، علق الشيخ" بأن الدعوة إلى تحديد الملكية تخالف الدين، وإن شيخ الأزهر أفتي بذلك»[4]، فالحاكم يعرف بأن إلباس الأمور لباس دينيا يضفي عليها قدسية وشرعية، والقائمون على هذا المكان الديني المقدس لا يتوانون عن التأييد وإرضاء أولي الأمر حتى وإن خالف ذلك الدين .

وفي رواية التلصص ينتقد الكاتب عجز الجيش المصري عن طرد اليهود من فلسطين ، فقد ورد في الرواية هذا الحوار : «يسخر مما نشر في الصحف عن حديث بين" حيدر "باشا وزير الدفاع وأحد الوزراء .قال له الوزير :شد حيلك يا باشا.عاوزين نعيد في" تل أبيب ."يعلق اللواء :يبقى يقابلني»[5] .

فصنع الله إبراهيم ، يحمل شخصياته رسالة الثورة على الفساد ، الذي كلف مصر خسارة معركة الكرامة لاسترداد فلسطين من اليهود ، تلك القضية التي هي محور الصراع بين العرب والغرب ، ففي رواية العمامة والقبعة يجبر المكان المتمثل في مدينة عكا أحد جنرالات الحرب وهو الكابيتان (هوية) على التصريح بقوله :

« لا شك أن عظام أجدادنا المدفونين في الأراضي المقدسة تشعر بالسعادة لوصولنا إلى هذه البلاد »[6]، وفي هذا إشارة إلى الحروب الصليبية وانهزام الصليبيين أمام جيوش صلاح الدين الأيوبي، وهي كذلك اعتراف من قادة الحملة الفرنسية على مصر بأن حملتهم لم تكن لنشر الحضارة كما يدعون، وإنما كانت بروح صليبية انتقامية .

وما يريد الكاتب قوله هو أن الصراع مع الغرب صراع أزلي بسلطة التاريخ، وشهادة المكان، ففي كل الأماكن هناك إحالات على وقائع تؤرخ لانتصارات أحد الأطراف أو انكساره ، فالمكان التاريخي يحيل إلى الزمن الماضي ، ويذكّر بالأحداث التي كانت فيه .

---

[1] أحمد مرشد ، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، بيروت ، لبنان ، 2005،ص 2151.

[2] العمامة والقبعة ، ص 29.

[3] المصدر نفسه ، ص 64.

[4] التلصص ، ص 23.

[5] المصدر نفسه ، ص 90.

[6] المصدر نفسه ، ص 151 .

أما في رواية " التلصص " فإن " صنع الله إبراهيم " يلجأ إلى عوالم الجن العجائبية التي لجأت إليها إحدى شخصيات الرواية والمتمثلة بوالد الراوي ، ليفضح الاتكالية التي تنخر المجتمع المصري ، و ينتقد بسببها المجتمع المصري بسخرية لاذعة ، فالشخص الذي يلجأ إلى الجن في قضاء أموره ،شخص عاجز ، ولا يبني أمة ، كيف وهو يورث أبناءه ذلك العجز ، حيث يوهمهم بأن هناك طقوسا تحميهم من أعين حراس الامتحانات ، وتساعدهم على الحفظ ، فالكاتب يسقط هذه الأحداث على زمن الكتابة ، ليوضح أسباب التخلف الذي تعيشه مصر.

ومن خلال هذه الدراسة فإن الأحداث التاريخية شكلت مواضيع روايات " صنع الله إبراهيم " ، باعتماد أسلوب التوثيق ، من خلال الاستناد على الوثائق التاريخية من كتب ومراجع ، وأسماء الشخصيات التاريخية ، في تشكيل سردي يمتزج فيه السرد بالتاريخ والسيرة الذاتية ، ويتقاطع فيه الواقع مع المتخيل ، حيث يكتشف القارئ للروايات بصمة الكاتب من خلال التلاعب بالزمن التاريخي ، وإسقاطات الماضي على الحاضر ،حيث تطل إيديولوجيا الكاتب بين ثنايا السرد، من خلال خلخلة المفاهيم لدى القارئ ، فصنع الله إبراهيم أراد إعادة كتابة ما أغفله المؤرخون ، وذكر ما يخجل من ذكره التاريخ الرسمي ، الذي يمجد القادة والعظماء ، ويهمش الضعفاء .